المبحث الخامس

القرآن الكريم .. وحُسْنُ التعليل

إن المتصفح لكتب التراث التى لها قدم راسخة فى فن البديع ودراسته ، ليرى أنها لم تذكر فى « حسن التعليل » أمثلة وشواهد من القرآن الكريم[1] ، سوى البعض منها كما فى كتاب « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجى عند ذكره : « الاستدلال بالتعليل »[2] واستشهاده بقول الله عز وجل « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا »[3] ، ولكن الشيخ عبد المتعال الصعيدى محقق الكتاب رحمه الله تعالى رد على ابن سنان فى هذه الآية وأبان أنهـا ليست من « حسن التعليل » ، وإنمـا هى شاهد لفن آخر وهو « المذهب الكلامى » ، وأيده فى ذلك الرأى المرحوم الدكتور / أحمد موسى فى رد قول ابن سنان بقوله : « فتراه يخلط بين ما عرف باسم « حسن التعليل » ، وما عرف باسم « المذهب الكلامى »[4] .

ولكن الدكتور / حفنى شرف يرد هذا الكلام ويرى الآية من قبيل « حسن التعليل » قائلا : « وهذا القول أخذه المرحوم - أى الشيخ عبد المتعال الصعيدى - من بعض البلاغيين الذين استشهدوا للمذهب الكلامى بهذه الآية ، وأنا أرى أنها تصلح شاهدا للتعليل إذ إن عدم فساد الكون يترتب على عدم تعدد الآلهة ، وتعدد الآلهة علة للفساد فنفى التعدد نفى للفساد »[5] .

ومع كل ذلك فإنى أرى أن كلام الدكتور الفاضل قريب الصلة بالمذهب

---

(١) ينظر : أسرار البلاغة ٢ / ١٢٨ وما بعدها ، نهاية الإيجاز ص ٢٩٧ ، المصباح ص٢٤١، حسن التوسل ص٥٥ ، نهاية الأرب ٧ / ١١٥، الإيضاح - بغية الإيضاح٤ / ٥٥ ، طراز الحلة ص ٥٦٣ ، معاهد التنصيص ٣ / ٥١ ، شروح التلخيص ٤ / ٣٧٣ ، المطول ص٤٣٦ ، الأطول ٢ / ٢١٠ .

(٢) ينظر : سر الفصاحة ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٣) سورة الأنبياء : آية رقم ٢٢ .

(٤) ينظر الصبغ البديعى ص : ٢١٧ .

(٥) ينظر : التصوير البيانى ص ٤٩٥ د . حفنى شرف .

الكلامى الذى هو طريقة أهل الاحتجاج بالبرهان ، وبعيد كل البعد عن « حسن التعليل » الذى قصده ، وذلك لأسباب :

(أولا) تعريف حسن التعليل وشرائطه لا تنطبق عليه .

(ثانيا) بالرجوع إلى أمهات كتب التفسير فى بيان معنى هذه الآية ، يقول الإمام ابن كثير : « لفسدتا » كقوله تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1] أى لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فمـا كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق ، كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض فى غاية الكمال . . . . والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع ، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا فأراد كل واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين والواجب لا يكون عاجزا ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالا ، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكنا لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورا ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[2] فهذا يدل على أن الآية من قبيل المذهب الكلامى كما ذهب إليه العلماء[3] .

(ثالثا) حسن التعليل مبنى على التخيل الذى فيه إيهام بالكذب فى اختراع العلة وتصوير ما ليس بواقع متخيلا كأنه واقع ، وهذا لا يليق بأسلوب القرآن الكريم المقرر للحقائق والصدق والتى نزه العلماء ساحة القرآن عن أن يقع فيها مثل ذلك ، وهذا غير موجود ومنطبق على أسلوب الآية الكريمة مما يؤكد كونها ليست من حسن التعليل .

وكذلك ما ورد فى كتابى العلامة ابن أبى الإصبع المصرى من الاستشهاد بقوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[4] ، فإننا نجد

---

(١) سورة المؤمنون : آية رقم ٩١ .

(٢) ينظر: فى ذلك تفسير ابن كثير ٣ / ١٧٥ ، ٢٥٤ ، نظم الدرر ١٢ / ٤٠٣ للبقاعى، ينظر : الفتوحات الإلهية ٣ / ٣٣٦ العلامة الجمل .

(٣) ينظر : الإيضاح . بغية الإيضاح ٤ / ٥٠ .

(٤) سورة القصص: آية رقم٨ ،ينظر: بديع القرآن ص ١٠٩ ، تحرير التحبير ص٣٠٩.

الإمام ابن كثير يقول فى تفسيرها : اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل ، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضى ما قالوه ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل ، لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوا لهم وحزنا فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم منه »[1] .

ويقول العلامة الجمل أيضا : أى فاللام لام العاقبة أبرز من مدخولها فى معرض العلة لالتقاطهم تشبيها له الترتب عليه بالغرض الحامل عليه[2] .

وعلى ذلك فإن العلة ليست مخترعة كما هو الحال فى حسن التعليل ، وبذلك لم تكن هذه الآية وما استشهد به ابن أبى الإصبع من آيات القرآن من « حسن التعليل » فى شىء وإنما هى من التعليل ، وذلك لأن التعليل فى القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ تعليل جاد لا هزل فيه ، والقرآن الكريم أسهم فى التعليل ولكنه يعلل بطريقة بليغة معجزة فيها المنطق وفيها فنية التعبير وفيها التشريع وفيها الجدية ، فالقرآن شارك الشعراء فى التعليل ، ولم يشاركهم فى حسن التعليل ، وما ذلك إلا لأن المبدع يلجأ فى حسن التعليل إلى الطرافة واختراع العلة وهو فى ذلك معرض للوقوع فى السخف والردىء من أنواع التعليل[3] ، وذلك لا يمكن أن يكون فى تعليل القرآن الكريم .

وقد عقد الإمام الزركشى قسما خاصا « للتعليل » فى كتابه « البرهان » وبدأه بقوله : أن يذكر الشىء معللا فإنه أبلغ من ذكره بلا علة لوجهين :

أحدهما : أن العلة المنصوصة قاضية بعموم المعلول .

الثانى : أن النفوس تنبعث إلى نقل الأحكام المعللة بخلاف غيرها ، وغالب التعليل فى القرآن على تقدير جواب سؤال اقتضته الجملة الأولى وهو سؤال عن العلة ومنه ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[4] ، ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[5] ، ﴿ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾[6] ، وتوضيح التعليل أن الفاء السببية لو وضعت مكان إنَّ لحسن[7] .

---

(١) ينظر : تفسير ابن كثير ٣ / ٣٨٠ ، ٣٨١ .

(٢) ينظر : الفتوحات الإلهية ٣ / ٣٣٦ .

(٣) ينظر : البديع : تأصيل وتجديد ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٤) سورة يوسف : آية رقم ٥٣ .

(٥) سورة الحج : آية رقم (١) .

(٦) سورة التوبة : آية رقم ١٠٣ .

(٧) ينظر : البرهان فى علوم القرآن ٣/ ٩١ .

ثم ذكر أنواع الطرق الدالة على العلة ، وأتى بأمثلة لها ، منها : قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾[1] . ثم قال: فإن قيل : اللام فيه للعاقبة كقوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[2] ، وقوله : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً ﴾[3] وإنما قلنا ذلك لأن أفعال الله لا تعلل ، فالجواب : أن معنى قولنا إن أفعال الله لا تعلل أى لا تجب ، لكنها لا تخلو عن الحكمة وقد أجاب الملائكة عن قولهم : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾[4] بقوله : ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[4] ولو كان فعله تعالى مجردا عن الغايات لم يسأل الملائكة عن حكمته ولم يصح الجواب بكونه يعلم مالا يعلمون من الحكمة والمصالح ، وفرق بين العلم والحكمة ، ولأن لام العاقبة إنما تكون فى حق من يجهل العاقبة كقوله : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[5] ، وأما من هو بكل شىء عليم فمستحيلة فى حقه ، وإنما اللام الواردة فى أحكامه وأفعاله لام الحكمة والغاية المطلوبة من الحكمة ثم قوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ هو تعليل لقضاء الله بالتقاطه وتقديره لهم ، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره وذكر فعلهم دون قضائه ، لأنه أبلغ فى كونه حزنا لهم[6] .

وبذلك يتضح لنا أن اللائق بكتاب الله تعالى هو التعليل ، وذلك لأنه كتاب الله الذى أحكمت آياته وصينت عن الكذب والتحليق فى آفاق الخيال ، شأن الكتب الدينية التى تتحدث عن الواقع وتربط المعلولات بعلتها الحقيقية ، وليس من شأنها تكلف النظر بخلق الخيال وإيهام الكذب وتحسينه[7] .

---

(١) آل عمران : آية رقم ١٢٦ .
(٢) القصص : آية رقم ٨ .
(٣) الحج : آية رقم ٥٣ .
(٤) البقرة : آية رقم (٣٠) .
(٥) القصص : آية رقم (٨) .
(٦) ينظر : البرهان ٣ / ٩٢ ، ٩٣ ، ورأى علماء البلاغة أن هذه الآية من قبيل الاستعارة التبعية فى الحرف يقول الخطيب القزوينى : وفى الحروف لمتعلقات معانيها . . . فيقدر التشبيه فى لام التعليل فى قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ للعداوة والحزن الحاصلين بعد الالتقاط بالعلة الغائية للالتقاط ، ويعلق الشيخ عبد المتعال الصعيدى عليه فيقول : وأما على طريقة الجمهور فيقال: شبه ترتب العداوة والحزن على الالتقاط بترتيب علته الغائية كالمحبة والتبنى عليه ، ثم استعير للمشبه اللفظ الموضوع للمشبه به وهو لام التعليل ، ينظر الإيضاح - بغية الإيضاح ٤ / ١٢١ ، ١٢٢ .
(٧) ينظر : حُسْنُ التعليل ص ١٨ .

أما حسن التعليل فإنه واقع فى الشعر وهو اللائق بتعليلات الشعراء التى تشتمل على الطرافة والإغراب ونوع من الإثارة ولفت الانتباه التى ربما تعرض للوقوع فى السخف أو الردىء من التعليل المنزهة عنه آيات القرآن الكريم ، وكذلك لما فيه من العلة المخترعة والمتخيلة والتى تنزّه عنها القرآن الكريم .

* * *